قاع المدينة والجدل السياسي والاجتماعي
" الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة " 1 أنموذجا

أ/ شيراز بالعبرية
جامعة سوسة/ تونس

هذا العمل هو بحث في خصائص المكان الذي يعدّ عنصرا أساسيّا من العناصر المكوّنة للعالم الروائي، ومقوّما من أهمّ المقوّمات التي ينهض عليها القص. إذ "لا يخلو عمل روائيّ من تحديد للمكان باعتباره وعاء للحدث وللشخصيّة أو إطارا لهما ولغيرهما من عناصر القص"[1]. ولذلك سنحاول البحث في خصوصيّات المكان من خلال علاقته بالشخصيّات؛ تلك العلاقة التي تعتبر المفتاح الذي يمكّننا من فتح مغالق النصّ والكشف عن رؤية الكاتب ومقاصده.

وقد آثرنا دراسة نوع خاصّ من الأمكنة التي تؤكّد هذه الوظيفة ونعني هنا "القاع" في علاقته بالمدينة. وهي علاقة تقوم أساسا على التناقض والصراع، نظرا إلى المكانة المركزيّة التي تحظى بها المدينة على حساب القاع والهامش. وقد تكتسب هذه المدينة ملامحها من سلوك سكانها والوافدين عليها الذين غالبا ما يواجهون برفض المدينة لهم، فكان هذا الرفض الأرضيّة الملائمة لنشأة القاع.

وقد يتخذ القاع أشكالا مختلفة، إذ يمكن أن ينشأ في قلب المدينة ذاتها أو في أطرافها "وقد يتخلّل القاع إحدى المدن فيندسّ في دروبها الملتوية وأزقّتها الضيقة ويدمج فيها ويصبح واحدا من مكوّناتها الأساسيّة"[2]. ولذلك يعدّ القاع فضاء رمزيّا يكشف عن أسرار المدينة ويفضح مواقف الكاتب السياسية منها والاجتماعية. وسنحاول البحث عن دلالات هذا القاع في

رواية "الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة" للروائي التونسي محمد حيزي الذي حاول من خلال هذه الرواية تأكيد العلاقة الجدليّة بين البنية الاجتماعيّة والسلطة السياسيّة، من خلال التركيز على المكان المنتظم لشبكة العلاقات بين الشخصيّات وتحكّمه في الأحداث. وتبعا لذلك رأينا أن نقسّم هذا العمل إلى محورين اثنين .سنحاول في المحور الأول الموسوم ب"القاع والبنية الاجتماعيّة، التركيز على العوامل الاجتماعيّة ودورها في نشأة القاع. أمّا المحور الثاني " القاع والواقع السياسي" سنكشف من خلاله العوامل غير المباشرة والكامنة وراء أزمة الشخصيّات. فكيف تبلورت هذه العلاقات في رواية الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة؟

I- القاع والبنية الاجتماعية:

لقد ارتبطت نشأة القاع غالبا بالمستوى الاجتماعي للشخصيّات المتحرّكة في هذا الفضاء، ممّا يعني أنّ البنية الاجتماعية تعدّ من العوامل المباشرة والمساهمة في نشأة القاع. ونلمس أولى مظاهر هذه البنية في الرواية المذكورة من خلال عتبة العنوان "الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة".

فهذا العنوان جاء مختزلا بل مفصّلا لمضمون الرواية، إذ يضاف الباب الخلفي إلى المدينة المنسية إضافة معنويّة، ممّا يؤكّد الصلة بين الطرفين ويجعل وجود أحدهما مشروطا بوجود الطرف الثاني. فمن خلال لفظة "الباب الخلفي" نفهم أنّ لهذه المدينة المنسيّة خفايا وأسرارا تثير دهشة القارئ. هذه الأبواب قد يلتجئ إليها الكثير من الفئات المهمّشة والفقيرة. وتعدّ في نظرهم بمثابة المخلّص من الفقر والذلّ.

فالباب الخلفي إذن، هو طريق الممنوعات لنسيان الألم ومجابهة الفقر والحرمان.

فاقتحام هذه الأبواب الخلفيّة متولّد عن القهر. وهذا ما جعل الشخصيّات تتحدّى كلّ القوى المضادّة لها والتي حالت دون رغبتها في الحياة والعيش الكريم بما في ذلك قوّة البوليس الواقفة بالمرصاد لمثل هذه الأعمال. وهذا دليل على أنّ "القهر في جميع الحالات يفضي إلى التمرّد، ومآل التمرّد دوما غامض لأنّه يُقمع لا محالة لكنّه يبقى المجال مفتوحا على الأمل في تغيير الحال".[3] ويركّز الكاتب على وصف المكان بدقّة رغبة في الكشف عن الوضع الاجتماعيّ المتدنيّ لهذه الفئات المهمّشة. هذا الوضع الذي كان وراء تورّطها وانزلاقاتها المستمرّة. ومن أمثلة هذا الوصف نذكر المقطع التالي:" دفع الباب الخشبيّ ودلف إلى الداخل...حيطان الغرفة المشقّقة تبدو عميقة تسكنها عناكب ميّتة في ألوان تشبه القيء والقطران...أحسّ انّه يعيش في كهف تطهّره الشمس في مكابدة كما أنّه يتمكّن كلّ صباح من سرقة بعض أشعّتها ليستعيد شيئا من أعصابه بعد مشقّة يوم متعب"(ص213). فمن خلال هذا الوصف نستشفّ المكانة الدونيّة والمستوى الاجتماعيّ لهذه الشخصيّات المعدومة والمحرومة من أبسط الأشياء التي تيسّر لهم سبل العيش. ولذلك كانت هذه الطرق الممنوعة هي الحل الوحيد الّذي توصّل إليه هؤلاء المهمّشون. فصاروا، على اختلاف مراتبهم الاجتماعيّة، يمارسون مهنة التهريب ويجرّبون صنوف الانحراف والتمرّد غير عابئين بالقانون والأخلاق. ويتحايلون لقضاء مصالحهم. فكانت أغلب الشخصيّات تسعى إلى الكسب بطرق ملتوية وهي تبحث عن "المفتاح... مفتاح الباب الخلفي إلى الرزق والمكسب والضوء... إلى الدنيا الأخرى"(ص211) دنيا المال والقوة والنفوذ حتّى يتمكّن هؤلاء المهمّشون "والزائدون عن الحاجة من

أن يحوّلوا أنفسهم إلى ذوات فاعلة وأن يحقّقوا قدرا من المشاركة والمعنى والانتماء"[4]. فالمهمّ بالنسبة إليهم الفعل بغضّ النظر عن طبيعة هذا الفعل. ولذلك نراهم يعتنقون المذهب الذرائعي "الغاية تبرّر الوسيلة"، و"الوقت هو المال". فالمال بالنسبة إليهم هو الغاية القصوى من الحياة؛ إذ جاء على لسان إحدى الشخصيّات القول التالي: "المال هو القوّة التي تجعلك قافزا متجاوزا كلّ الحواجز الصعبة... المال هو لعبة الحياة وسيّدها الأوّل...بدونه لن تستطيع رفع رأسك هذه المكوّمة هموما وأتعابا..."(ص196).

وقد اختلفت مفاتيح هذا الباب الخلفي للمدينة المنسيّة والمهملة من شخصيّة إلى أخرى. فالسفر بالنسبة إلى حامد هو المفتاح الذي سيمكّنه من تحقيق أهدافه والعبور إلى عالم آخر مختلف عن عالمه البائس. ولذلك اختار الهرب بدلا من التهريب وكان مصرّا على الصمود والمقاومة حفاظا على نقائه. ولكنّه يبدو في بعض الأحيان ممزّقا بين التشبّث بالأرض والرغبة في كسب المال،. ولعلّ من أبرز علامات هذا التمزّق أن يتّخذ حامد من ذاته ذاتا أخرى يحاورها محاولا إقناعها بالتخلّي عن مبادئها التي تشدّها إلى القاع؛ وهي مبادئ متعلّقة أساسا بحفظ أرض الأجداد.

أمّا إبراهيم الحفيان فقد اختار التحايل والتملّق ومواقعة النساء سبيلا لبلوغ السلطة والنفوذ غير عابئ بما قد يلحقه بالآخرين من أضرار. فهو الذي يستعمل الناس جسورا يدوسها ليصل إلى أهدافه فيقول:" هذه ورقتي التي يجب أن ألعبها حتى أكسب الرهان...من المفروض أن يكون هناك ضحايا في هذه الدنيا حتى يحقّق الأذكياء كلّ أمانيهم"(ص211).

بينما عمّار الكناتري فقد اختار طريق التهريب أو "الكنترة "فهو يعتبر أنّ "التهريب أقصر طريق للمال"(ص12). وإنّ هذه الطريق تتطلّب قطعا

تامّا مع المبادئ التي كان ينادي بها باعتباره نقابيّا يدافع عن حقوق العمّال والكادحين. ولكنّ هذه المبادئ أصبحت عائقا تحول دون تحقيق مسعاه وتقلّل فرص كسبه للمال. ولذلك يدعو إلى القطع مع هذه المبادئ فيقول:" المبادئ... طز يا صاحبي في المبادئ وحقوق العمّال...لا أريد أن أظلّ فما ثرثارا لا يستطيع أن يوفّر حاجيّات بيته الضروريّة...يجب أن أسبح مع التيّار حتّى أصل"(ص65). ولذلك"غرق في التهريب والرشاوي والعتمة... في لحظة قرار مرّة انتزع نفسه من مبادئ لا توفّر الخبز والعيش الكريم لأسرته الصغيرة"(ص 224).

وإنّ تورّط الشخصيّات المختلفة في هذه المتاهات والمستنقعات ليس اختيارا منها، وإنّما هي تبرّر ذلك بظروف الحياة القاسية التي دفعتها إلى اقتراف مثل هذه الأفعال لتلبية طموحها والتخلّص من جاذبيّة القاع. كما هو شأن المدرّس إبراهيم الحفيان الذي قال مبرّرا سلوكه المنحرف: "كنت مرغما على اقتراف أيّة حماقة مّا حتّى لا أظلّ مجرّد مدرّس مقذوف في القرى البعيدة أحلم ببيت صغير في المدينة وزوجة حلوة وأسبوع مختلف على شاطئ البحر النائي".(ص208) ولذلك ينعت نفسه بالإخطبوط القادر على تحويل بؤسه إلى سعادة دائمة.

فلكلّ شخصيّة إذن، دوافعها وأساليبها في المقاومة وتحدّي البؤس والفقر والخروج من القاع.. ولئن اختلفت أساليب الشخصيات فإنّها تشترك جميعها في البيئة والبنية الاجتماعية كما تشترك في الأهداف؛ وهي الثروة والعيش الكريم. فهي تعيش حربا ضروسا مع التهميش والبؤس. وهذا ما يبرّر انسياقها في مزالق خطيرة وبالتالي فإنّ التسلّل إلى الأبواب الخلفيّة هو تعبير عن رفض الفئات المهمّشة لأوضاعها الاجتماعيّة والاقتصاديّة. كما يمكن اعتباره سلاحا فعّالا للمقاومة والصمود أمام تحدّيات الحياة الصعبة. فهذه الشخصيّات منها من اختار الانغلاق على نفسه والعيش في

القاع ومنها من سعى إلى الانفتاح على العالم الخارجي سعيا إلى حياة أفضل. وهنا يمكننا القول بأنّ القاع في " الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة" " ينوس بين الانغلاق في نوع من المحتشد، والانفتاح القسري على فضاءات خارجيّة بحثا عن القوت وأشياء أخرى. ولكنّه يبقى في جميع حالاته مهمّشا مرفوضا ومرغوبا فيه في الآن نفسه لتحقيق الغايات المشبوهة والأعمال المريبة كتجارة المخدّرات والكحول والجنس والبضائع المهرّبة"[5] والرشوة والتحايل على الآخرين لانتزاع فرص الحياة الممكنة.

وبالتالي فـ"إنّ انحرافات هؤلاء، أو ممارساتهم الخاطئة، تحيل، بشكل أساسيّ، على هويّاتهم وانتماءاتهم الاجتماعيّة، كأنّ لهذه الانحرافات والممارسات تاريخا قوامه البنية الاجتماعيّة نفسها"[6].

فمن خلال هذه الممارسات، نلاحظ أنّ نشأة القاع كانت وليدة وضعيّة اجتماعيّة مخصوصة . إلاّ أنّ هذه الوضعيّة لم تكن العامل الأساسي وإنّما تضافرت مع عامل آخر رئيسيّ غير أنّ الكاتب لم يتحدّث عنه بطريقة مباشرة وإنّما اكتفى بالتلميح إليه، ونقصد هنا العامل السياسيّ.

II- القاع والواقع السياسي:

لم تكن الوضعيّة الاجتماعية للشخصيات في هذه الرواية بمعزل عن الواقع السياسي للبلاد التونسية في مرحلة محدّدة من تاريخها ؛وهي مرحلة الحكم البورقيبي. ولكن ما نلاحظه في "الباب الخلفي" هو تسليط الضوء على الأوضاع الاجتماعية والإنسانيّة للشخصيّات على حساب الوضع السياسي الذي كان مجال الحديث فيه ضيّقا رغم الدور الكبير والفعّال الذي لعبه هذا العامل.ولذلك سنقوم برصد العلامات أو القرائن التي تدين النّظام السياسي إن بشكل أو بآخر.

تظهر أولى ملامح الواقع السياسي من خلال التركيز على الحدث السياسي المفاجئ و المتمثّل في الانقلاب العسكري في تونس ضد الرئيس الحبيب بورقيبة. ويبدو أنّ الكاتب كان مستبشرا بهذا الحدث كما بدا متفائلا بخطاب الرئيس الجديد للبلاد. ويظهر ذلك من خلال ذكره لهذا الخطاب كاملا. كما عمد إلى إعادة بعض مقاطعه. وقد أبدى سكّان هذه المدينة المنسيّة، أيضا، استبشارا بالحدث إذ جاء في القول التالي:"تملّى وجوه سكّان الأزقّة ليكتشف شيئا من الفرح يزحف جدولا نقيّا يدفع بعض الحزن والكآبات الخفيّة هناك في الصدور وطيّات الروح المثقلة بالأيّام الرتيبة والمواجع "(ص292). فمن خلال تركيز الراوي على الحالة النفسيّة للشخصيّات ووصف انفعالاتها يمكننا أن نتبيّن طبيعة السلطة السياسيّة في الفترة المذكورة.

إذ لعبت هذه السلطة دورا مهمّا في تعميق الفجوة بين الجهات أو بين المدن والقرى. كما ساهمت خيارات الدولة التونسية في الفترة البورقيبيّة في تهميش العديد من الشرائح الاجتماعيّة نتيجة لعدم تكافئ فرص التنمية والتشغيل . وقد تعمّد الكاتب إحداث مقارنة ضمنيّة بين مدينته المنسيّة ومدن الشمال والمقصود هنا العاصمة لإبراز الفارق بين الجهتين.

ولهذا يؤكّد الكاتب أنّ خيارات الدولة لم تكن عادلة ولا هي متكافئة . ولذلك حاول رواية وقائع مدينته المنسيّة "للفت الانتباه إلي هذه المدينة الفجّة التي لفحها الغبار وعشّش فيها الصمت و طالها النسيان". وقد لاحظنا شبها كبيرا بين المدينة وسكّانها وكأنّ الطرفين دخلا في علاقة تأثّر وتأثير. فهذه العلاقة ترسم ملامح علاقة الشخصيّات بالمكان. "فالمكان والشخصيّة يستمدّان معناهما من بعضهما"[7]. فالتهميش الذي يلقاه الأهالي هو أساسا متولّد عن تهميش مدينتهم . ولذلك كان القاع في هذه المدينة "مشتقّا من روحها وليس قابعا في هامشها أو مندسّا في قلبها"[8].

وهذا ما يفسّر تركيز اهتمام الكاتب على وصف المدينة المهملة والمنسيّة بل يشخّصها ويكسبها صفات الحي أحياناً. فتتحوّل هذه المدينة، وفق ذلك، إلى شخصيّة فاعلة في الرواية تحاول الصمود والاستمرار.

وقد شرع الكاتب في وصف المدينة منذ عتبة العنوان" مدينة النسيان والدهشة". وكأنّنا به يقدّم مبرّرات أو دوافع بحث الشخصيّات عن الأبواب الخلفيّة للمدينة باعتبارها المنافذ الممكنة" لطرد ذلك الإحساس بالدون والخيبات". وبذلك يمحّض الكاتب المكان للفعل والتأثير في كلّ العناصر السرديّة من زمان وأحداث وشخصيّات ليكون بذلك هو الفاعل الأساسي وبؤرة العمل الروائي.

إنّ هذه المدينة هي المركز الذي انطلقت منه الأحداث لتعود إليه، وهي المتحكمة في مصائر الشخصيّات. إذ طالما أنها لم تتغيّر فإنّ أوضاع سكّانها لن تتغيّر "فهذه إذن علاقة جدليّة بين الجماد والإنسان، كلّ منهما يشكّل الآخر وينحت صورته. وكلّما كان الشكل مزريا والصورة قاتمة تشكّل من روح المدينة قاع بشع يباع فيه كلّ شيء ويشترى"[9].

فالعلاقة بين الشخصيات والمدينة بدت عضويّة أو هي علاقة تأثرّ وتأثير. ونستشفّ ذلك من خلال القول التالي:" مدينتي هذه لوحة فسيفساء مشوّهة ونحن جميعا قطعها وتركيبتها الأولى من السجن إلى المقبرة... بدوننا نحن لا يمكن لوجهها المشروخ أن يكتمل"(ص81). ولكلّ ذلك، فالمدينة "هي ليست مجرّد مكان يؤطّر أحداثا بل تكتسب خصائصها ممّا يحدث فيها وممّن يتحرّك فيها ويُصارع ويتكلّم فلا يقلّ التلفّظ قيمة في الدلالة على المكان من وصفه الخارجي وصوره المتعاقبة"[10].

فحرص الكاتب على ربط الصلة بين المكان والشخصيّة يؤكّد من ناحية ،الدور الذي يلعبه المكان في تسيير الأحداث والتحكّم في مصائر الشخصيّات، ويدين من ناحية أخرى، وبشكل ضمني، السلطة السياسيّة

ويجرّمها مرتين: مرّة عندما همّشت هذه المدينة وتناستها، ومرّة أخرى حين قتلت أحلام المحرومين والكادحين وحوّلتهم إلى مجرمين ومتحايلين مستعدّين للمتاجرة بأي شيء لقضاء مصالحهم والتخلّص من حياة البؤس والخروج من عتمة القاع . فالعيش في القاع ، كما هو واضح، يقف عائقا أمام تحقيق أهداف هذه الشخصيّات، ولذلك يلتجئ بعضها إلى الهرب من هذا السجن الضيق والمغلق طلبا للراحة والسعادة. وقد عبّر حامد عن ضيق المكان ورغبته في السفر إلى عالم آخر أرحب أكثر اتساعا وانفتاحا بقوله:" هناك ستقبل عليّ الدنيا بعد نكران وسأتحول إلى رجل سعيد يحمل بين جوانحه عشرات الأمنيات... ماذا يفصلني عن الإحساس الرحب... إنّه المكان فقط... عندئذ تتغيّر الصباحات والمساءات ويصبح لها طعم خاصّ وينزاح عنّي الثقل الكريه فأفتح قلبي على العالم في امتلاء..."(ص16).

تشير هذه القرائن إلى الدور الذي لعبه المكان في شقاء الشخصيّات وبؤسها الدائم وإحساسها المستمرّ بالدون. ولذلك كانت المدينة، من وجهة نظر الشخصيّات، هي العامل الأساسي لاستفحال البؤس. وقد تولّد نوع من التشابه بل التماهي بين المدينة وأبناءها فبات بؤس الشخصيّات نتيجة طبيعيّة لبؤس هذه المدينة. وإنّ هذا التماهي يؤكّد أنّ التهميش قد بلغ أشدّه فاستوى المركز والهامش ليصبح كلّ المدينة قاعا مفرغا من كلّ الدلالات لانعدام أسباب الحياة فيها.

لقد حاول الكاتب البحث عن الأسباب الكامنة وراء تهميش المدينة من ناحية، وتحوّل مجرى حياة الشخصيّات من ناحية أخرى. فطرح هذا السؤال في أكثر من موضع ليؤكّد أنّه لا توجد ظاهرة إلاّ وكانت وراءها أسباب منها الظاهر ومنها الخفيّ كما جاء في قول حامد:" ليس هناك أشياء ثابتة وكلّ ظاهرة لها أسبابها الخفيّة وكلّ علّة لها خلل ما في أنحاء

الجسد كما أنّ العاهة هي بداية التراكم"(ص28). فهذا التراكم هو ما جعل عمّار يتحوّل من نقابيّ إلى "كناتري"، فيتساءل السارد عن أسباب هذا التحوّل المفاجئ، فـــ"هل هي حاجته للمال...كلّ شيء اهتزّ فيه فأمسى رجلا آخر...من خلاله تستطيع أن تذهب بعيدا...إلى هذه الفوضى الهائلة التي تسكن الأشياء...إلى البؤس الذاهب إلى ضفاف القلب... هل يمكن أن تجد مبرّرا لكلّ ما تراه حولك...ما تستطيع أن تحدّده أنّ هناك أخطاء ظاهرة وخفيّة تحتاج لرجّة عنيفة فاصلة"(ص28). أو أنّ هناك عوامل مباشرة وأخرى غير مباشرة أدّت إلى هذه الاستفاقة المفاجئة والرغبة في الخروج من القاع، وطيّ صفحة التهميش والنسيان، والالتحاق بالطبقات العليا للمجتمع.

فالعوامل المباشرة حسب الشخصيّات مصدرها المدينة المهمّشة والمنسيّة لأنّ "الهامش الجغرافي هو المكان الطبيعي للهامش الاجتماعي"[11]. وكأنّنا بالكاتب يحاول تبرير تورّط الشخصيّات وانزلاقاتها من خلال ربط الصلة بين الطرفين مؤكّدا تلك الجدليّة التي تحدّثنا عنها سالفا بين المدينة والأهالي . ولذلك فإنّ الحديث المطنب عن المدينة جعل الرواية ترشح بالقضايا الإنسانيّة ذات الصبغة الاجتماعية والسياسيّة. وهذا ما حدا بالكاتب إلى الانتقال بسلاسة من الوضع النفسي للشخصيّات ومنه إلى الوضع الاجتماعيّ ليصل في النهاية إلى الوضع السياسيّ. وبذلك يتحوّل المكان إلى همزة وصل بين الواقع الاجتماعي والواقع السياسي.

ولذلك فإن التخلّص من دونيّة المرتبة الاجتماعيّة تطلّب حدوث معجزة تتمثّل في إزاحة النظام الحاكم. إذ يلمّح الكاتب من خلال قرائن عديدة إلى دور العامل السياسي في تهميش هذه المدينة وعدم النهوض بها. ونتبيّن ذلك من خلال قول السارد واصفا مدينته: "كأيّ مدينة في هذا الوطن تظلّ واقفة تقاوم في صمت تعبها ترفع مدينتي رأسها عاليا كأنّها تبحث عن

مخرج ما...عن معجزة تعيد ترتيب فوضاها وأشياءها المتراكمة وتأخذها من سماءها المنخورة إلى سماء أخرى مليئة بالزرقة والرذاذ والسحب الممطرة"(ص20). إنّ تغيّر أوضاع المدينة مرتبط بحدوث هذه المعجزة أي تغيّر السلطة السياسيّة .ولعلّ هذا ما يفسّر تكرّر لفظة "المعجزة" بعد ذلك في مناسبات عدّة من قبيل "أن تصبروا وتنتظروا معجزة ما فقد تفتح الأبواب يوما"(ص274)، كنت أنتظر معجزة ما... خلخلة تلج رتابة ما نراه وتخترق الفضاء المسن"(ص291)، "لقد تحقّقت المعجزة ... لقد سقط فرعون"(ص320).

وقد ساهمت ردود أفعال الشخصيّات من الانقلاب العسكري في كشف النقاب عن طبيعة السلطة السياسية في عهد الزعيم الحبيب بورقيبة وقصورها عن تحقيق العدالة الاجتماعيّة وتكافؤ الفرص بين الجهات. ومن هذه الردود نذكر الأمثلة التالية: "غمّة وانزاحت"(ص277)، "لقد سقط فرعون أخيرا"(ص278)، "يا...كيف ينمو البرعم من عمق البور وبراثن الضمإ"(ص291)." السماء صارت شفّافة وأكثر زرقة"(ص293).

فهذه الأقوال وردود الأفعال عبّر عنها الكاتب بجمل قصيرة وموجزة إلا أنّها كانت مشحونة بدلالات ومعان عدّة لتؤكّد غطرسة النظام والسلطة السياسية التي امتدت لعقود طويلة دون أن تسعى إلى تغيير توجّهاتها وتضييق الهوّة بين المدن والالتفات إلى المدن المنسيّة والمغمورة. ولذلك كان هذا الحدث السياسي بمثابة المعجزة التي لم تكن تتخيّلها الأذهان، إذ عبّر الكاتب عن هول هذه المفاجأة غير المنتظرة بقوله: "كيف يمكن أن تستوعب الأعصاب شكل الحدث وتخرج من فم القارورة المقفلة بعد الرحلة المطوّلة التي رسمت اتّساع العين واستدارة اللّسان وأشياء القلب... ذلك لا يصدّق لأنّ نبضنا صارت له وتيرة واحدة لا تتغيّر ومسار لا يقدر على تحويل المجرى... الزمن عندنا يسير وفق

حركة أصابعه ورعشة جفنيه كما لا يمكن أن نفرح دون أن نرى ملامحه كلّ مساء وهو يروي تفاصيل السنوات الكاوية..."(ص278) . لقد اتخذ موقف الكاتب من هذا الحدث مسحة ساخرة تأكيدا لتغلل النظام وتحوّله إلى قدر محتوم يتحكّم في مصائر الناس. ولذلك كان القضاء على هذا النظام بمثابة المعجزة الصادمة التي فاقت كلّ التصوّرات.

فمواقف الشخصيّات من هذا الحدث المفاجئ عكست بوضوح هذا الدور لتؤكّد التباس المستوى الاجتماعي للأفراد بالمستوى السياسي للدولة. فبهذه المواقف تحاول الرواية "أن تنفذ إلى العامل الأساسي وتعبّر عنه كفاعل أوّل. فكانت، بشكل عام، تنسج عالما روائيّا بتوظيف فنيّ توخّى نقد الوضعيّة الاجتماعيّة وتقديم معرفة بالظواهر السلوكيّة الخاطئة"[12] التي تمارسها الشخصيّات. فالحدث السياسي ،كما نلاحظ، لم يذكر لذاته وإنّما تمّ ذكره باعتباره خلفيّة عامّة تبرّر معاناة الأفراد، ويعدّ سببا رئيسا لتدهور أوضاع الشخصيّات. ولذلك تمّ التركيز على المعاناة الفرديّة التي تحوّلت شيئا فشيئا إلى معاناة جماعيّة. وهذا ما يبرّر اختيار الكاتب لعدّة شخصيّات مختلفة اجتماعيّا وثقافيّا لتعميم المعاناة لتنسحب على كلّ المدينة.

فالسلطة السياسيّة، حسب ردود الأفعال المذكورة، كانت وراء عرقلة مسار التنمية في هذه المدينة المغمورة والقضاء على أحلام أهاليها. فهؤلاء استنفذوا كلّ أسلحتهم المشروعة وغير المشروعة ولم يتبقّ لهم سوى الأحلام يقاومون بها قسوة الحياة. ولكنّ الواقع كان أقوى نفوذا من هذه الأحلام التي تتحوّل إلى كذبة كبيرة تبدّدها موجات الواقع العاتية.

إنّ عدم تصريح الكاتب بالدور الذي لعبه الجانب السياسي في تدنّي المستوى الاجتماعي للشخصيّات يضمر سؤالا مهمّا يدعونا إلى " طرحه على المرجعي نفسه، إنّه سؤال يضمر الإشارة إلى شروط غيابه: أي إلى

طبيعة السلطة السياسيّة ونظمها وممارساتها"[13]. وإنّ سكوت الكاتب عن الدور الذي لعبته القوى السياسية في تهميش المدينة وتهشيم كيان الشخصيات يحيلنا على موقف بيير ماشري (Pierre Macherey) من الإيديلولوجية وعلاقتها بالأدب حين قال بأنّ"العمل الأدبي لا يرتبط بالإيديولوجي عن طريق ما يقوله بل عبر ما لا يقوله . فنحن لا نشعر بوجود الإيديولوجيا في النص إلاّ من خلال جوانبه الصامتة الدالة، أي نشعر بها في فجوات النصّ وأبعاده الغائبة"[14]. ولذلك كان سكوت الكاتب عن هذا العامل فاضحا للنظام وكاشفا عن طبيعته انطلاقا من تسليط الضوء على البنية الاجتماعية.

وبالتالي لم يعد المكان مجرّد فضاء مكتنف للأحداث والشخصيّات وإنّما تحوّل إلى فضاء أرحب لبلورة مواقف الكاتب ورؤيته للواقع السياسي والاجتماعي في البلاد. وهذا ما يمحّض القاع للقيام بدور مزدوج، إذ يتحوّل من مجرّد فضاء ضيّق يوحي بالمرتبة الدونيّة للشخصيّة إلى فضاء رحب يفتح على الحقائق ويفضح الوقائع السياسيّة المستورة والخفيّة.

ولذلك يمكننا القول إنّ الحكاية في هذه الرواية هي حكاية المكان. هذا المكان الذي اختزل معان عدّة لها علاقة بالتهميش والقمع والظلم. وقد ساهمت هذه المعاني في نقد وضع اجتماعي متردّ منسوب إلى وضع سياسيّ عامّ. ومن هذا المنطلق يؤكّد الكاتب العلاقة الجدليّة بين الأدبي والسياسي والاجتماعيّ.

خاتمـــة:

إنّ ما نخلص إلى قوله في نهاية هذا العمل هو أنّ رواية " الباب الخلفي لمدينة النسيان والدهشة" انطلقت من خلفيّة أو مرجعيّة سياسيّة تعبّر عن مواقف كاتبها ورؤيته الإيديولوجيّة. وهذا يعني أن الرواية السياسيّة تنطلق من المرجعي والتاريخي لتأثيث عالمها الروائي دون أن يفقدها ذلك أدبيّتها و"لا ينال من إبداعيّة العمل الأدبي الروائي ولا من جماليته، بل إنّ هذا التوظيف هو بمثابة رقيّ في التقنية السرديّة يبحث عن خصوصيّة قول لخصوصيّة مرجع"[15].

وقد عبّر الكاتب عن هذا التداخل بين السياسي والأدبي بقوله: "كأيّ رجل عاش انقلابا ماّ سأحاول قدر المستطاع أن أبوح بالممنوعات... ما أكتبه سيظلّ نائما في مفكّرتي هناك في الدرج العالي... قد ينتبه إليه شخص مّا فيعرف مرحلة ما من تاريخ هذا الوطن... لن أدخل في تحليل سياسيّ جافّ خال من وجهة أدبيّة... "(ص96). ولهذا السبب نجد الكتابة الأدبيّة غالبا ما "تحاذر التسيّس لأنّه اختزال وتسطيح لا للإبداعي، بل للمرجعي نفسه، وتلتفت إلى ما يناهض هذا الاختزال والتسطيح. لذا تلتفت إلى الواقع الاجتماعي بما يعنيه من معان تتعلّق بالإنسان ووعيه، بحياته وعيشه، بتفكيره وحريّته".[16] ولعلّ هذا ما يفسّر تركيز الكاتب على وصف البنية الاجتماعية والاكتفاء بالتلميح إلى الواقع السياسي. كما برهن على أنّ الرواية السياسيّة لا تنفصل عن الحياة الاجتماعيّة وذلك انطلاقا من التركيز على دور الأنظمة السياسيّة في تعميق الفوارق بين المركز والهامش وهو ما ولّد ضروبا من الفساد منها الاجتماعي والأخلاقي والاقتصادي. كما يمكننا القول إنّ الكاتب سعى إلى البحث عن الحقيقة أو بالأحرى الكشف عن حقيقة الأوضاع الاجتماعيّة المترتّبة عن الوضع السياسي، فلم يبحث عن هذه "الحقيقة في المركز بل بحث عنها في

الهامش[17]. ولذلك كان القاع أهمّ فضاء تتكشف فيه الحقيقة ويكشف فيه النقاب عن الوضع الحقيقي للبلد.

ولكلّ هذه الأسباب لم تكن معاناة الشخصيّات الروائيّة على اختلاف مستوياتها الاجتماعيّة والثقافيّة مجرّد معاناة فرديّة معزولة وإنّما هي معاناة ذات جماعيّة مأزومة تختزل الفئات المقموعة والمهمّشة العالقة في القاع. وبذلك يكشف المكان المستور ويفضح ممارسات السلطة السياسيّة بأسلوب فنيّ يبتعد عن التحليل السياسي الجاف.

الهوامش:

1 إبراهيم السعّافين، تحوّلات السرد، دراسات في الرواية العربية، الطبعة العربيّة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان 1997، ص165

2 محمود طرشونة: ألسنة السرد،، الدار العربيّة للكتاب،2007، ص 99

3 محمود طرشونة: ألسنة السرد، الدار العربيّة للكتاب،2007، ص107

4 محمد الباردي: إنشائيّة الخطاب في الرواية العربيّة الحديثة، مركز النشر الجامعي، 2004، ص215

5 محمود طرشونة، ألسنة السرد، مرجع مذكور، ص97

6 يمنى العيد، فن الرواية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1998، ص 183

7 عبد الرحيم حزل، الفضاء الروائي، طبعة إفريقيا الشرق 2002، ص133

8 محمود طرشونة، ألسنة السرد، ص104

9 محمود طرشونة، مرجع مذكور،ص106

10 محمود طرشونة، مرجع مذكور، ص95

11 محمود طرشونة، مرجع مذكور، ص97

12 يمنى العيد: فن الرواية بين خصوصية الحكاية وتميز الخطاب، دار الآداب، بيروت، ط1، 1998، ص ص190،-191

13 يمنى العيد: مرجع مذكور، ص190-191

14 Pierre Macherey : pour une théorie de la production littéraire, Maspéro, Paris, 1980,p 174

نقلا عن سعيد بنكراد: الإيديولوجية في الرواية بشأن الوضع النظري والمنهجي لمفهوم المسكوت عنه، مجلة علامات، العدد7، 1997

15 يمنى العيد ، مرجع مذكور، ص190-191

16 يمنى العيد، مرجع مذكور، ص189

17 صلاح فضل: دلالات العلاقة الروائيّة، دار كنعان للدراسات والنشر، ط1، 1982، ص75